دراسات في الأدب

للدكتور عبد الوهاب عزام

أمثلة من النقد في الأدب العربي [1]

١ — نقد الجزئيات :

قال امرؤ القيس في فرس :

وأركب في الروع خيفانة ... كسا وجهها شعر منتشر

فقال النقاد: هذا غلط في مدح الخيل لأن انتشار الشعر على الوجه عيب فيهن

وقال زهير في الضفادع :

يخرجن من شَرَبات ماؤها طَحِل
على الجذوع يخفن الغم والغرقا

فقالوا : هذا جهل بطبيعة الضفادع فإنها لا تخاف الغرق

وقال أبو ذؤيب الهذلي يصف فرساً :

قُصِر الصبوح لها فشُرّج لحمها ... بالنيّ فهي تثوخ فيها الأصبع

قال الأصمعي : حمار القصّار خير من هذا . وإنما يوصف الفرس بصلابة اللحم

وقال أبو تمام :

ألذ من الماء الزلال على الظما ... وأطرف من مر الشمال ببغداد

أخذ عليه القاضي الجرجاني أنه جعل الشمال طرفة في بغداد ، وهي أكثر الرياح هبوباً بها ... الخ

فهذه أمثلة من الغلط في طبائع الأشياء

وقال أبو تمام :

اسق الرعية من بشاشتك التي ... لو أنها ماء لكان مَسوسا
إن البشاشة والندى خير لهم ... من عفة جمست عليك جموسا
لو أن أسباب العفاف بلا تقى ... نفعت لقد نفعت إذاً إبليسا

قال القاضي الجرجاني : فليت شعري لو أراد هجوه ، وقصد الغضّ منه هل كان يزيد على أن يذم عفته ويصفها بالجموس والجمود وهما من صفات البرود والثقل ثم يختم الأمر بأن يضرب له إبليس مثلاً ويقيمه بإزائه كفواً ؟

(١) جمعنا هذه الأمثلة تيسيراً على الباحث ويحسن الرجوع إلى الكتب المبينة في هذا الفصل

وقال أبو الطيب في مطلع قصيدة :

وفاؤكما كالربع : أشجاه طاسمه ... بأن تسعدا ؛ والدمع ، أشفاه ساجمه

وقال القاضي الجرجاني : ومن يرى هذه الألفاظ الهائلة والتعقيد المفرط فيشك أن وراءها كنزاً من الحكمة ، وأن في طيها الغنيمة الباردة ؟ حتى إذا فتشها وكشف عن سرها وسهر ليالي متوالية فيها حصل على « أن وفاءكما يا عاذليّ بأن تسعداني إذا درس شجاني ، وكلما ازداد تدارساً ازددت له شجواً كما أن الربع أشجاه دارسه » . فما هذا من المعاني التي يضيّع لها حلاوة اللفظ ، وبهاء الطبع ، ورونق الاستهلال ، ويشحّ عليها حتى يهلهل لها النسج ويفسد النظم ، ويفصل بين الباء ومتعلقها بخبر الابتداء قبل تمامه ، ويقدم ويؤخر ، ويعمي ويُعوص . ولو احتمل الوزن تركيب الكلام على صحته فقيل : وفاؤكما بأن تسعدا أشجاه طاسمه كالربع . أو وفاؤكما بأن تسعدا كالربع أشجاه طاسمه . لظهر هذا المعنى المضنون به المتنافس عليه ... الخ

وقال المتنبي في مدح سيف الدولة :

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمة ... وثغرك وضّاح ووجهك باسم

فقال سيف الدولة : ينبغي أن تطبّق عجز (البيت) الأول على الثاني وعجز الثاني على الأول وأنت في هذا مثل امرىء القيس في قوله :

كأني لم أركب جواداً للذّة ... ولم أتبطّن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزقّ الرويّ ولم أقل ... لخيلي كرّي كرّة بعد إجفال

قال المتنبي : أدام الله عز مولانا ؛ إن صح أن الذي استدرك هذا على امرىء القيس أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا . ومولانا يعرف أن البزاز لا يعرف الثوب معرفة الحائك لأن البزاز يعرف جملته ، والحائك يعرف جملته وتفصيله ؛ لأنه أخرجه من الغزليّة إلى الثوبيّة؛ وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد ، وقرن السماحة في شراء الخمر بالشجاعة في منازلة الأعداء .

وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت أتبعته بذكر الردى ليجانسه ؛ ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً ، وعينه من أن تكون باكية قلت : ووجهك وضّاح وثغرك باسم لأجمع بين الأضداد في المعنى .

٢ — ومن قولهم في نقد الشعراء :

كان النابغة أحسن الناس ديباجة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأذهبهم فى فنون الشعر وأكثرهم طويلة جيدة ، ومدحا وهجاء وفخرا ووصفة .

وروى أن عمر بن الخطاب قال: أنشدونى لأشعر شعرائكم. قيل: ومن هو ؟ قال: زهير. قيل: وبم صار كذلك ؟ قال: كان لا يعاظل بين القول ولا يتبع حوشى الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما فيه .

وفى الشعر والشعراء : كان أوس بن حجر عاقلاً فى شعره كثير الوصف لمكارم الأخلاق وهو من أوصفهم فى الخمر والسلاح ولا سيما القوس . وسبق إلى دقيق المعانى وإلى أمثال كثيرة .

وقال الجرجانى :

« ولو تأملت شعر أبى نواس حق التأمل ثم وازنت بين انحطاطه وارتفاعه وعددت منفيه ومختاره لعظمت من قدر صاحبنا (يعنى المتنبى) ما صغرت ، ولأكبرت من شأنه ما استحقرت ، ولعلمت أنك لا ترى لقديم ولا لمحدث شعرا أعم اختلافا وأقبح تفاوتا ، وأبين اضطرابا ، وأكثر سفسفة ، وأشد سقوطا من شعره » يعنى أبا نواس .

وفى العمدة :

« وقال بعض من نظر بين أبى تمام وأبى الطيب : إنما حبيب كالقاضى العدل ، يضع اللفظة موضعها ، ويعطى المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة ، أو كالفقيه الورع يتحرى فى كلامه ويتحرج خوفا على دينه .

وأبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهراً وعنوة ، أو كالشجاع الجرىء يهجم على ما يريد. لا يبالى مالقى ولا حيث وقع»

٣ — ومن قولهم فى تأثير البيئة فى الأدب قول الجرجانى :

« ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك (الخشونة والجفاء) ولأجله قال النبى صلى الله عليه وسلم : من بدا جفا . ولذلك تجد شعر عدىّ وهو جاهلى ، أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما إسلاميان لملازمة عدىّ الحاضرة ، وإيطانه الريف ، وبعده عن جلافة البدو ، وجفاء الأعراب .

وقال ابن رشيق :

« قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فيحسن فى وقت ما لا يحسن فى آخر ، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند غيره؛ ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله بعد ألا تخرج من حسن الاستواء وحد الاعتدال وجودة الصنعة »

« فلما ضرب الإسلام بجرانه واتسعت ممالك العرب، وكثرت الحواضر ، ونزعت البوادى إلى القرى؛ وفشا التأدب والتظرف ، اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله وعمدوا إلى كل شىء ذى أسماء كثيرة فاختاروا أحسنها سمعاً وألطفها من القلب موقعاً .. وأعانهم على ذلك لين الحضارة وسهولة الطباع والأخلاق ، فانتقلت العادة وتغيّر الرسم وانتسخت هذه السنة الخ »

٤ — ومن قولهم فى الطبع والخلق وأثرهما فى الأدب قول الجرجانىّ :

« ثم قد تجد الرجل شاعراً مفلقاً ، وابن عمه وجار جنابه ، ولصيق طُنبه بكيا مُفحَما ، وتجد فيها الشاعر أشعر من الشاعر ، والخطيب أبلغ من الخطيب . فهل ذلك إلا من جهة الطبع والذكاء وحدة القريحة والفطنة ؟ وهذه أمور عامة فى جنس البشر ، لا تخصيص لها بالأعصار ، ولا يتصف بها دهر دون دهر

«وقد كان القوم يختلفون فى ذلك فتتباين أحوالهم ، فيرق شعر أحدهم ، ويصلب شعر الآخر ؛ ويسهل لفظ أحدهم ، ويتوعر منطق غيره . وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق ، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة

وأنت تجد ذلك ظاهراً فى أهل عصرك وأبناء زمانك . وترى الجافى الجلف منهم كزّ الألفاظ، معقّد الكلام، وعر الخطاب ، حتى أنك ربما وجدت ألفاظه فى صورته ونغمته، وفى جرسه ولهجته»

٥ — ومن قولهم فى طرائق البيان :

قال القاضى الجرجانى: « ولا آمرك بإجراء أنواع الشعر كله مجرى واحد ، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه ؛ وأرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعانى فلا يكون غزلك كافتخارك ، ولا مديحك كوعيدك ، ولا هجاؤك كاستبطائك ، ولا هزلك بمنزلة جدك ، ولا تعريضك مثل تصريحك ؛ بل ترتّب كلاً مرتبته ، وتوفيه حقه ؛ فتلطف إذا تغزلت ، وتفخم إذا افتخرت ، وتتصرف للمديح تصرف مواقعه ؛ فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف ، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام . فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه . وليس ما رسمته لك فى هذا الباب بمقصور على الشعر دون الكتابة ، ولا بمختص بالنظم دون النثر .

بل يجب أن يكون كتابك فى الفتح والوعيد خلاف كتابك فى التشوّق والتهنئة واقتضاء المواصلة ؛ وخطابُك إذا حذّرت وزجرت أفخم منه إذا وعدت ومنيت .

فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه وسهل حفظه ، وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس . فأما القذف والإفحاش فسباب محض ، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم »

وقال ابن رشيق فى العمدة :

« يجب للشاعر أن يكون متصرفاً فى أنواع الشعر من جد وهزل وحلو وجزل ، وألا يكون فى النسيب أبرع منه فى الرثاء ، ولا فى المديح أنفذ منه فى الهجاء ، ولا فى الافتخار أبلغ منه فى الاعتذار ، ولا فى واحد مما ذكرت أبعد منه صوتاً فى سائرها ؛ فإنه متى كان كذلك حكم له بالتقدم وحاز قصب السبق كما حازها بشار وأبو نواس بعده » ... الخ .

٦ — ومن قولهم فى حرية الأدب قول صاحب الوساطة :

« فلو كانت الديانة عاراً على الشعراء ، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر ، لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدواوين ، ويحذف ذكره إذا عُدّت الطبقات ، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر ، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزِّبعرى وأضرابهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء ، وعاب من أصحابه ، بُكما خرساً وبكاء مفحمين ؛ ولكن الأمرين متباينان والدين بمعزل عن الشعر » .

٧ — ومن قولهم فى صفات الناقد :

قال ابن قتيبة فى مقدمة الشعر والشعراء : « ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختار له سبيل من قلة أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى التقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه حظه . فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه ورأى قائله . ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوماً بين عباده وجعل كل قديم ، منهم حديثاً فى عصره »

وقال صاحب الوساطة :

« وملاك الأمر فى هذا الباب خاصة (النقد) ترك التكلف ورفض التعمل والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه ، والعنف به . ولست أعنى بهذا كل طبع ، بل المهذب الذى قد صقله الأدب وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة وألهم الفصل بين الردىء والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقبيح »

هذه أمثلة من ضروب النقد المختلفة سردتها ليلتفت طلاب الأدب إليها ، ويستزيدوا منها ، ويتبينوا ما وراءها من طرائق النقد ومذاهب النقاد . وفى كتب الأدب كثير منها ومن شاء فليرجع إلى الجزء الأول من البيان والتبيين ، ومقدمة كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى وكتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى

تاريخ الأدب

— ١ —

إذا نُقد شعراء أمة وكتّابها المتعاصرون ، وقُرن هذا النقد بعضه إلى بعض وتألفت مما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه صورة لعصرهم ، وبُينت الأسباب التى اجتمعت على تأليف هذه الصورة ، ألوانها وهيئتها ، فهذا تاريخ عصر من عصور الآداب

وإذا شمل النظر عصوراً متتابعة فاستبانت صور الآداب فيها ، وعُرف تطوّر هذه الصور وانتهاء كل واحدة إلى التى تليها ، وُرِدّ هذا التطور إلى أسبابه فهذا تاريخ الأدب فى هذه العصور

فتاريخ الأدب وصف آداب العصور وترتيبها وتعليلها

— ٢ —

وهو كالنقد يستمد من ذوق الناقد وتقديره مزايا الكلام وعيوبه وأطواره ، ومما أحاط بالأدباء من حقائق التاريخ والجغرافيا ، والاجتماع وغيرها . وعلى مؤرخ الأدب أن يلائم بين ذوقه وعلمه بهذه الحقائق فلا يحكم الذوق على غير بينة ، ولا يغفله ويعتمد فى تأريخه على الحقائق العلمية الجافة ؛ بل يجعل حكمه نتاج الذوق المهيأ للحكم بمعرفة واسعة ، وتأمل دقيق ، وتقدير لأحوال الأدب بليغ ، فيكون حكمه خلاصة العلم ، ونتيجة الذوق الذى لا بد منه فى تقويم الأدب

— ٣ —

لم يكن تاريخ الأدب على هذه الشاكلة معروفاً لدى القدماء ؛ وإنما كان سبيلهم جمع تراجم الشعراء والكتاب ، وتبيين محاسنهم ومساوئهم ، والاستشهاد ببعض أقوالهم ، ولم يكن قولهم موصلاً مستوعباً يؤلف صورة عامة للأدب فى عصر أو عصور ولا كان التعليل فيها مطرّداً . فكان عمل المؤرخين تراجم متفرقة ينقصها